كان ياما كان

العهد

كان يا ما كان
كانَ هُنَاكَ فِى قَدِيمِ الزَّمَانِ..
وَفِى سَالِفِ العَصْرِ والأوَانِ...
شَابٌّ صَغِيرٌ اسْمُه عِرْفَانُ..
وكانَ عِرْفَانُ يتيمًا ، فَمنذُ صغَرِه
فَقَدَ الأَبَ... وعَوَّضَتْهُ أمُّه
عَنْ هَذَا الفُقْدانِ.. فكانَتْ
لَهُ الأُمُّ والأبُ... وأحاطتْه
بِسَيْلٍ مِنَ الحُبِّ
والحَنَانِ...
وكانَ والدُهُ مِنْ خِيارِ
التُّجَّارِ...

ونعمَ الأبُ وراعي الدارِ.. يخشى المولى عزَّ وجلَّ... فنشأ عرفانُ ابنًا باراً..
وبَعْدَ وفاةِ الأبِ تولَّتْ الأمُّ شئونَ التجارةِ.. فخَرَجَتْ للبيعِ والشرَاءِ والعَملِ والإدارةِ..
ومرَّتْ الأيَّامُ وزالَ الحزْنُ والمرارةُ.. وتفوقَتْ الأمُّ فِى العَملِ ونجحتْ بجدارةٍ..
وكانَ عرفانُ يريدُ أنْ يُساعِدَ أمَّه فى العَمَلِ..
فتخبرهُ أنَّهُ مازالَ صَغيراً وهو المستقبلُ والأملُ.. فيدعو لأمِّهِ قائلاً: حَفَظَكِ اللهُ لى..
فتجيبُه فى حَنانٍ : وجَعَلَكَ عَوْنًا لِى ..
ومرَّتْ الأيَّامُ والشهورُ باردةً فِى الشتاءِ وفِى الصَّيْفِ حارَّةً ...
والأمُّ تخرجُ مَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ مِنْ أجْلِ التجارةِ...
وكانَتْ تَشقَى وتَتْعَبُ حَتَّى تُؤَدِّى عملها بكلِّ مَهَارةٍ..
وكانَتْ تَكدُّ وتكافِحُ فِى حَرارةِ الجوِّ اللافِحِ..
ومرَّتْ السَّنواتُ وعرفانُ لأمِّه مطيعٌ.. يَعِدُها أنْ يتولَّى العملَ حيْنَ يستطيعُ..
وبَعْدَ أنْ كبرَ عرفانُ واشْتَدَّ عُودُهُ.. احتضنَ أمَّه فى حَنانٍ ونَفَّذَ وُعُودَه..
وراحَ (عرفانُ) يتولَّى أمُورَ التجارةِ وهو سَعِيدٌ. والأمُّ لم تَتْرُكْ ابنَها الوَحِيدَ..
بل ظلَّتْ ترافقُه وترقُبُه مِنْ بَعيدٍ...
وكانَ (عرفانُ) مِنْ أنجحِ التُّجَّارِ ، وظلَّ يعملُ ليلَ نَهارٍ.. وتجمعَ حَوْلَ متجرِهِ الصَّغيرِ.. جَمْعٌ غَفِيرٌ..

وراحُوا يشترونَ البضائعَ
بالمالِ الوَفيرِ.. وتبدَّلَتْ
الأحْوالُ وكثُرتَ الأموالُ

وصارَ عرفانُ منْ أغنى الرِّجَالِ..
ولاحظتْ الأمُّ أنَّ (عرفانَ) يكذبُ فى بَعْضِ الأحْيَانِ.
حتى يَسْهُلَ عليه البَيْعُ للعامَّةِ والأعيَانِ..
كأن تكونَ السِّلْعَةُ قَدِيمَةً ، ويؤكِّدُ أنَّها جديدةٌ..

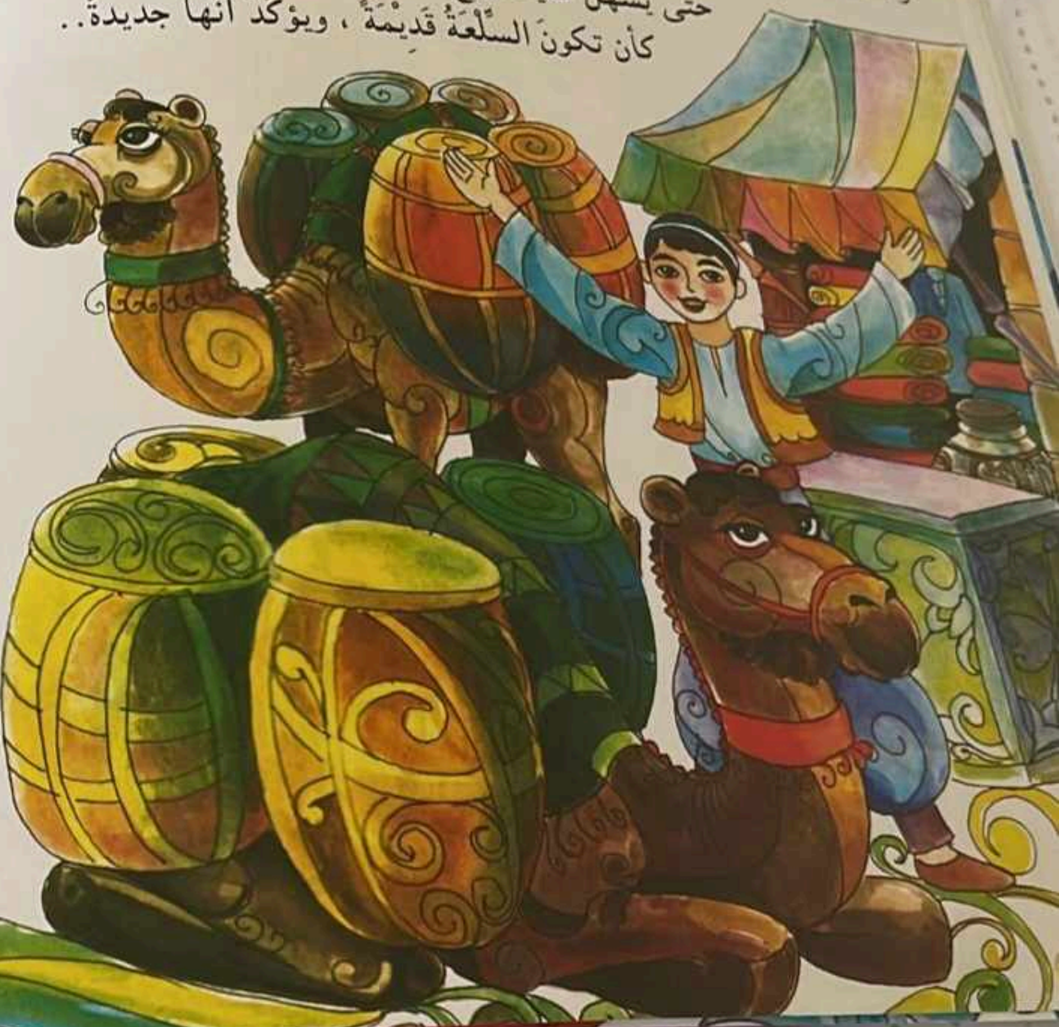

وتكونُ منْ مَادَّةٍ ضَعيفةٍ ويذكرُ أنَّها شَدِيْدَةٌ. وقَدْ يُغالِى فِى الأسْعَارِ. يالِلخزْى،
ويالِلعارِ!! ويبخسُ فى الميزَانِ. إذَنْ فَقَدْ ضَاعَ الأمانُ ، وصَارَ كَذِبُهُ عَلَى النَّاسِ هو
القاعِدةُ والأسَاسُ ، ويتخذُ أىَّ إجْرَاءٍ لتَيْسِيرِ
البَيْعِ والشِّرَاءِ.
وانزعجَتْ الأمُّ بشِدةٍ..
وخاطَبَتْ ولدَها فِى حدَّةٍ..
قَالَتْ: وَيْحَكَ يا عرْفَانُ.. أتغشُّ الكيلَ
والميزانَ.. هكذا أمَامَ شُهودِ
العَيَانِ.. يجب أنْ تكونَ خزيانَ..
قَالَ : هذه هِي لعْبَةُ السُّوقِ..
قالتْ: بَلْ هوَ عَيْنُ الفُسُوقِ..
إنَّ والدَكَ صَالِحٌ بَارٌّ..
وكانَ يَرْعَى القريبَ
والجَارَ..

ويَعْطفُ عَلى الأيْتَامِ والصِّغَارِ.. أمَّا مَا تفعلهُ الآنَ فهو تخريبٌ ودَمَارٌ..
وكانُوا يَدْعونَ له بَعمار الدِّيَارِ..
يا بُنَيَّ.. نَحْنُ بالله آمَنَّا.. ومَنْ غَشَّنَا فليسَ منَّا..
يجبُ أنْ تعلمَ أنَّ الكَذبَ والرِّيَاءَ هما أساسُ كُلِّ دَاءٍ ، وهما عيْنُ الابتلاءِ..
فالكذبُ منْ صفَاتِ المنافقينَ الأشْرَارِ،
والمنافقُ مِنْ أهْلِ النَّارِ..

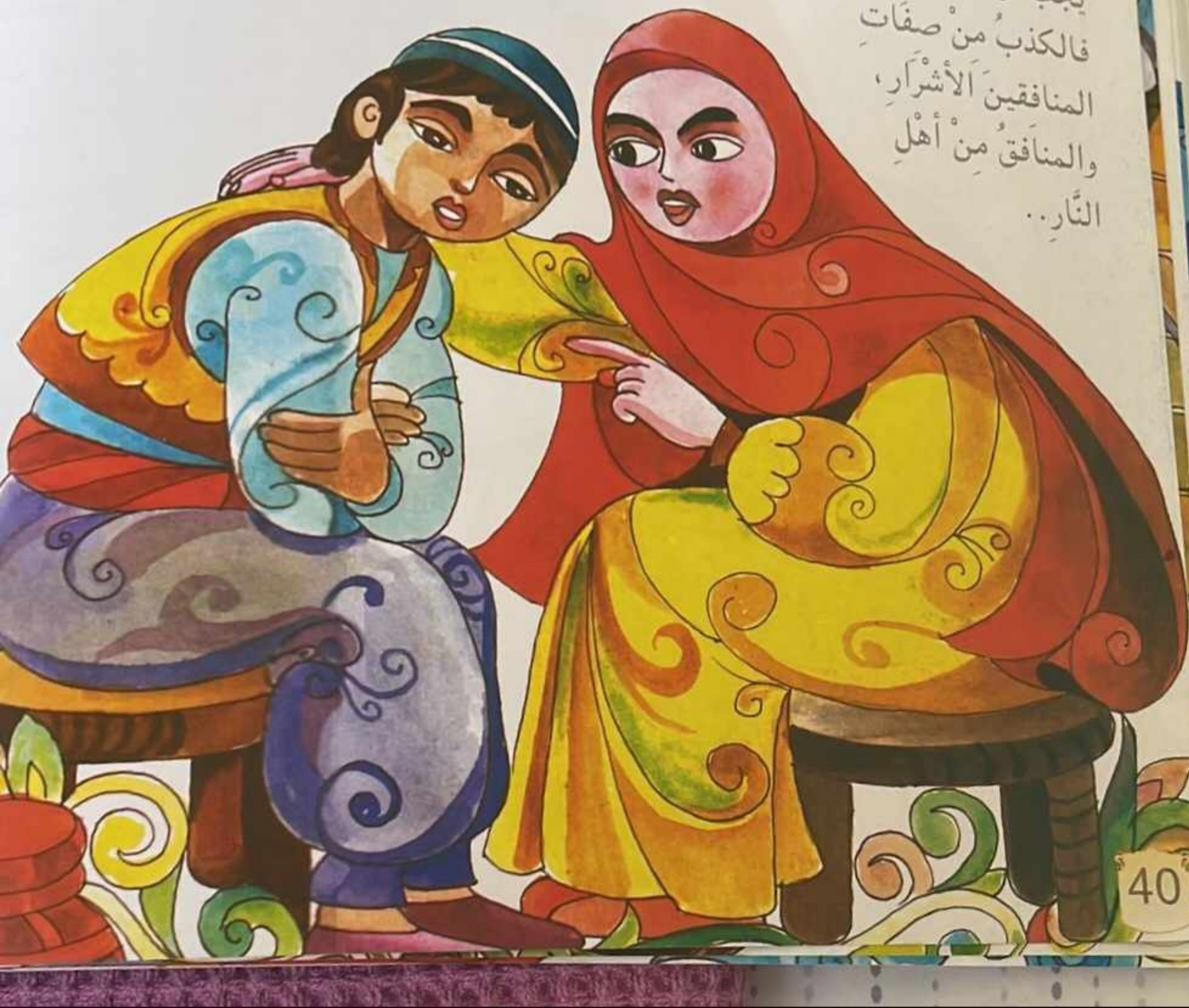

شَعَرَ (عرفَانُ) بالخِزْي والخَجَلِ .. وقالَ لأمِّه : سَامِحِينى يا أمَّاه، حقًا إنَّ الكذبَ
مِنْ أخطرِ الآفاتِ.. وأنا نادمٌ وحَزِينٌ عَلى مَا فَاتَ ..

قَالَتْ الأمُّ فى حَنَانٍ: عاهدْنى يَا عرفانُ .
سَألَها في اهْتمامٍ: عَلى أىِّ شَىْءٍ أُعَاهدُك
يا أمّى ؟ أجابَته الأمُّ بقولها : عاهدْنى يازينةَ
الشَّباب عَلى أنْ لا تنطقَ إلا صدقًا مَهْمَا كانتْ
الأَسْبَابُ.. وأنْ تَعْدلَ دَوْمًا وتُوَفِّى الكَيْلَ
والأُجُورَ ، ولا تكذبَ
أبداً ، فالكذبُ هو
قلبُ الفجور.
قالَ (عرفانُ)
في صدْقٍ
وحَزْمٍ: أعدُك
يا أمِّى أنَ

أكونَ صَادقًا إلى الأبد وأفرَّ من الكَذب فرارَ الأسَد..
وبالفعلِ نَفَّذَ (عرْفَانُ) وَعْدَه لأمِّه وكانَ وَفيًا لعهدِه مَعَها ، فصارَ مِنْ أصدَقِ التجارِ
وأكثرهم أمَانةً، ورزَقَهُ اللهُ القديرُ برزقٍ وَفيرٍ..
وذَاتَ يَوْمٍ قَرَّرَ (عرْفَانُ) السَّفرَ مَعَ قافلةِ التجارِ لإحْضَارِ البضائعِ ، وقَبْلَ الرَّحيلِ وقفَ
الشَّابُّ الأَصيلُ يُودِّعُ أمَّه الحنونَ ويستمعُ باهتمامٍ إلى مَا تقولُهُ مِنْ كَلامٍ.
قَالَتْ الأُمُّ: احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ منْ كُلِّ شَرٍّ، واتقِ اللهَ ييسر
لك كل أمر، وإيَّاكَ والكذبَ إيَّاكَ، وتَحَرَّ
الصدقَ هُنا وهناكَ ..

قالَ عرفانُ : أعاهدُك يا أمّاه ألاّ أكونَ كذّابًا مَهْما كانتْ الأسْبابُ..

قال عبارته وَوَدّعَ أمّه ثم استَدارَ وانْطلق في وَضَح النهارِ..

وسارَتْ القافلةُ بينَ الصّحارى والجبالِ والصُّخورِ والرِّمالِ والسُّهُولِ والتلالِ حتى إذا شعَرَتْ بالتّعَبِ الجمالُ أوْقفَ الرِّجَالُ التّرحَالَ لتستريحَ الجمالُ فى الحَال..

ومرّتْ الأيّامُ والقافلةُ تسيرُ فى سَلامٍ، وفى إحْدى اللّيَالى كانَ (عرْفانُ) مُسْتسلمًا للنومِ على ضوءِ البَدْرِ المنيرِ، وفجأةً حَدَثَ أمْرٌ خَطيرٌ ، فَقَدْ اسْتَيقَظَ في فزعٍ عَلى صوْتِ صيْحاتٍ وهَلَعٍ ، واكتشفَ أنَّ هُنَاكَ مَجموعةً مِنَ المُجرمينَ قطاعَ

الطريقِ هَاجَموا القافلةَ وهيَ نائمةٌ غافلةٌ.. وراحَ (عرْفانُ) يتابعُ باهْتمامٍ وحَذَرٍ ذلكَ الحقْدَ والشَّررَ المتطايرَ منْ عينى زَعيمِ العصَابةِ وهو يقفُ فى خُيَلاءٍ، ويقومُ بالاستيلاءِ على كلِّ مَا هُوَ غالٍ وثمينٍ.. حقاً فهو لصٌّ غَيْرُ أمينٍ..

وبَدَأ رجالُه فى السَّلْبِ والنَّهْبِ عَلى ضَوْءِ القمرِ المنيرِ دُوْنَ رَحْمَةٍ أو ضميرٍ..

والتفتَ زَعيمُ الأشْرارِ إلى (عرْفَانَ) وسألَهُ عن أمْوَاله ونقوده وكانَ صَديْقُنا الشابُّ قَدْ أخفاها بَيْنَ الثيابِ حتى ينعمُ بهدوءِ البَالِ

ويحميها من أىِّ مُحْتال..
وصَمَتَ عرْفَانُ قليلاً ثُمَّ قَالَ فى ثقة وصدْقٍ: لَقَدْ أخْفَيْتُ أمْوالى بَيْنَ ثيابى.
تعجَّبَ الرجُلُ مِنْ هَذه الإجَابةِ وظَنَّ أنَّها

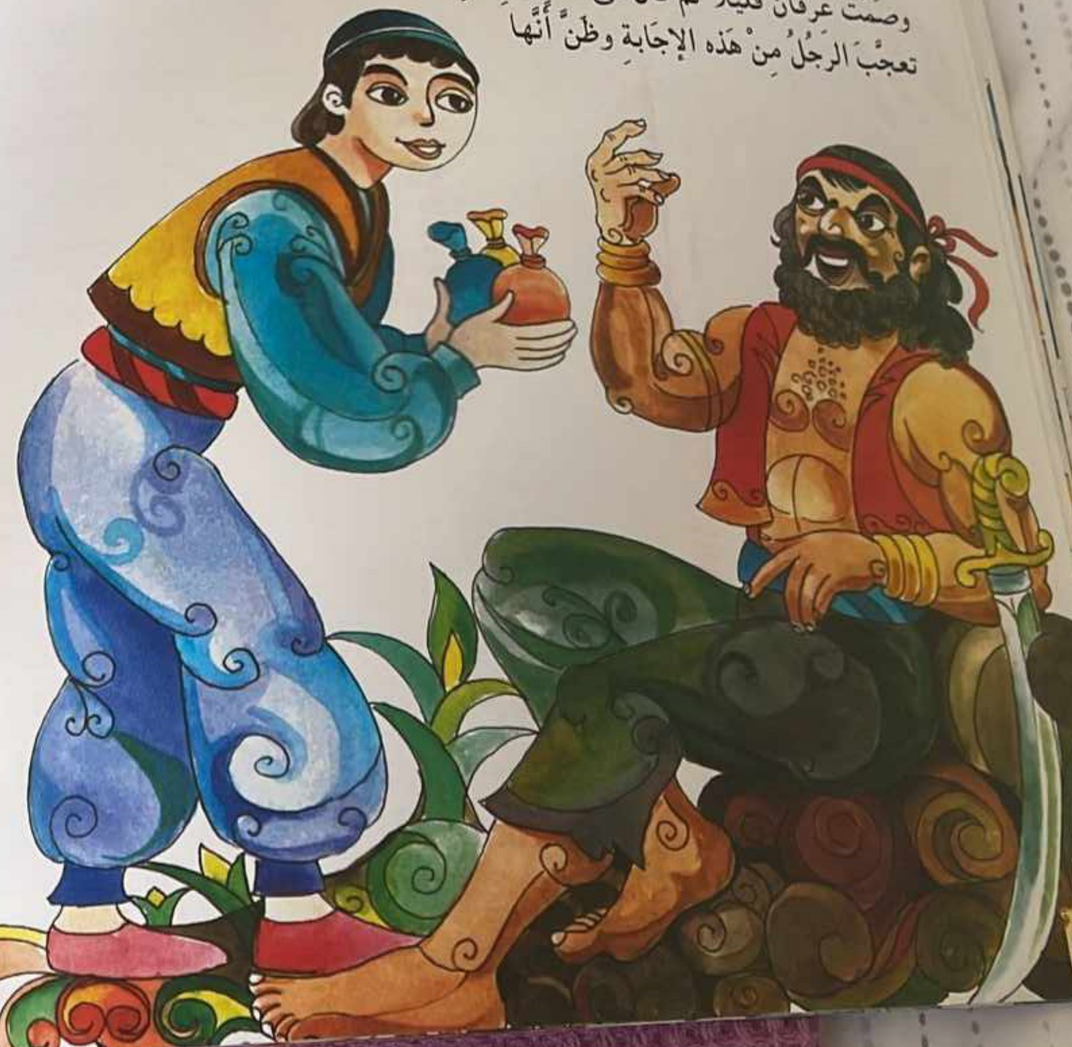

دعابةٌ وصَاحَ بلهجةٍ آمرَةٍ: هَات ما مَعَكَ منْ أمْوالٍ.
ذَهَبَ (عرْفَانُ) إلى حَيْثُ يُخْفى الأمْوالَ وعَادَ فِى
الحَال وأعْطَى كُلَّ ما يَمْلكُ لهذا المحتال..
نَظرَ الرَّجُلُ لرفاقه فى حَيْرَةٍ ثم الْتَفتَ لعرْفَانَ
وسَأله قائلاً: غير معقول !! هَلْ أنتَ مخبولٌ؟
لماذَا لم تَنكرْ أنَّ مَعَكَ نُقُوداً خاصَّةً وأنَّه
لا يوجدُ عليكَ شُهودٌ ؟
ابتسمَ (عرْفَانُ) وقَالَ للرَّجُل الضَّالِّ:
لقد عَاهَدْتُ أمِّى بألاَّ أنْطقَ بالكذب أبداً
وأن أنطقَ بالصِّدْق دَوْمًا... وأنَا أحفظُ
عَهْدى معها . وهُنَا نكسَ الرَّجُلُ رأسَه فِى
خَجَلٍ،
وقَالَ: أنْتَ تحافظُ عَلى عَهْدكَ مع أمِّكَ
وأنَا لاَ أحَافظُ عَلى عَهْدى مَعَ الله ؟
قَالَ هَذه العبَارة فى حَزْمٍ ، ثم أضَافَ
فى حَسْمٍ: لقَد تُبْتُ فى الحَالِ عَنْ